مقال رأي

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

صوت صغير في لعبة الكبار
التلاعب بالكوتا المسيحية في العراق

د. سعد سلوم

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

صوت صغير في لعبة الكبار: التلاعب بالكوتا المسيحية في العراق

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط /قسم الأبحاث / الدراسات الساسية

الاصدار / مقال رأي

الموضوع / الانتخابات، الحكومة والدستور والقانون

د. سعد سلوم/أستاذ العلاقات الدولية في كلية العلوم السياسية _ الجامعة المستنصرية.

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌ، غيرُ ربحيٍّ، مقرُّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ، ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليلٍ مستقلٍّ، وإيجاد حلول عملية جليّة لقضايا معقدة تهمُّ الحقليْنِ السياسي والأكاديمي.

ملحوظة:

لا تعبّر الآراء الواردة في المقال بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنّما تعبّر عن رأي كتابِها.

حقوق النشر محفوظة © 2025

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org
Since 2014

في مداخلتي خلال المؤتمر الذي نظمته (المديرية العامة للثقافة السريانية) في إقليم كردستان عام 2024، استعرتُ من عالم دوستويفسكي روايته الخالدة «الأخوة كارامازوف» لأصف علاقة المسيحيين في العراق بالمكونات الكبرى: الشيعة، السنة، والأكراد.

قلت إن هذه القوى الثلاث تشبه إخوة آل كارامازوف في صراعهم الأبدي بين الشهوة والعقل والروح.[1]

فديمتري، الأخ المندفع الذي تحكمه الغريزة والعاطفة، يُذكّرنا ببعض القوى التي تتحرك بدافع القوة والغلبة، ترى في المسيحيين تفصيلاً صغيراً في مشهد النفوذ، يمكن استثماره متى شاءت أو تجاهله متى أرادت.

وإيفان، الأخ المثقف الشكاك، يرمز إلى من يرفع شعارات الفكر والعقلانية، لكنه حين يصل إلى مفترق الفعل، يتردد ويترك المبدأ يذوب أمام المصلحة.

أما أليوشا، الأخ الروحاني، فهو صورة تلك القوى التي تُظهر محبةً وتعاطفاً صادقين، لكنها تبقى عاجزة عن حماية من تحب، لأن الطيبة وحدها لا تصنع توازناً في عالمٍ تمزقه المصالح.

---

1. رواية «الإخوة كارامازوف» (1880) للكاتب الروسي فيودور دوستويفسكي تُعد من أعظم أعمال الأدب العالمي، وتتناول صراع الخير والشر في النفس البشرية من خلال قصة أسرة مضطربة. يتمحور السرد حول الأب فيودور كارامازوف، رجل فاسد أخلاقياً، وأبنائه الثلاثة الذين يمثل كلٌّ منهم جانباً مختلفاً من الروح الإنسانية: ديمتري (ميتيا): الأخ الأكبر، تجسيد للعاطفة والغريزة والصراع بين الشهوة والضمير. وإيفان: الأخ الأوسط، المفكر والعقلاني، يعاني أزمة الإيمان في مواجهة الشر والمعاناة. وأليوشا: الأصغر، رمز الإيمان والمحبة الروحية، تلميذ الراهب زوسيما، يمثل البُعد الأخلاقي النقي في الرواية. تدور الأحداث في الرواية حول جريمة قتل الأب وما تكشفه من أسئلة وجودية عميقة عن الحرية، والعدالة، والمسؤولية الأخلاقية، ليغدو كل أخ مرآة لوجه من وجوه الإنسان في صراعه مع ذاته والعالم.

قلت إن المسيحيين وجدوا أنفسهم مثل الطفل الصغير في الرواية، يقف وسط هذا الصراع بين الإخوة الثلاثة، يتلقّى وعودهم وحنانهم حيناً، ويتحمل نتائج صراعاتهم حيناً آخر. وهكذا، تحوّل حضورهم في المشهد السياسي والاجتماعي إلى تمثيل رمزي أكثر منه فاعلاً حقيقياً، حضور يشبه صدى الأصوات في بيتٍ كبير، يُسمع لكنه لا يغير مسار الحكاية.

لقد أردتُ بهذه الاستعارة أن أقول إن مأساة المسيحيين في العراق ليست في قلّة عددهم، بل في كونهم دائماً مرآةً لغيرهم لا صورةً لأنفسهم، إذ تُستخدم مأساتهم لتجميل وجه هذا الطرف أو ذاك، فيما تضيع أصواتهم الحقيقية في ضجيج الإخوة الكبار.

من هنا دعوتُ، في ختام مداخلتي، إلى أن يتحرر المسيحيون من دور الابن الصغير في رواية الصراع العراقي، وأن يستعيدوا صوتهم لا بوصفهم ملحقاً بغيرهم، بل كجزءٍ أصيلٍ من نسيج هذه الأرض. فكما لم تكتمل مأساة الأخوة كارامازوف إلا حين غاب العدل والرحمة، كذلك لا تكتمل حكاية العراق دون أن يُنصت الكبار إلى ذلك الصوت الهادئ، المتجذر في التاريخ، الذي مثّله المسيحيون منذ قرون.

إن خلاص الجميع يبدأ حين ندرك أن تنوّعنا ليس لعنةً بل نعمة، وأن الإخوة الثلاثة - بكل ما فيهم من تناقضٍ وصراع- لا يجدون سلامهم إلا عندما يتصالحون مع الطفل الذي فيهم، ذاك الذي يرمز إلى البراءة والصدق والضمير.

بهذا المعنى، فوجود المسيحيين بين المكونات الكبرى ليس عبئاً، بل مرآةٌ لما يمكن أن يكون عليه العراق إذا تصالح مع ذاته: بلدٌ لا يبتلع أبناءه، بل يحتضنهم جميعاً في روايةٍ جديدة، عنوانها هذه المرة المحبة والعدالة بدل الغلبة والمصلحة.

بين الإخوة الكبار.. والكوتا الصغيرة

في الأسبوع الماضي، وخلال مشاركتي في المؤتمر الدولي الذي نظّمه المركز الكاثوليكي للدراسات والإعلام في الأردن بالتعاون مع مؤسسة كونراد أديناور، استخدمتُ مجدداً الاستعارة ذاتها التي طالما لجأتُ إليها لتوصيف واقع المشاركة السياسية للمسيحيين في العراق. ركزتُ في مداخلتي على الأوضاع السياسية للمكوّن المسيحي في العراق والمنطقة، من زاوية تحليلية تناولت طبيعة النظام الانتخابي الراهن، وحدود التمثيل السياسي في ضوء التعديلات الدستورية وقوانين الانتخابات الأخيرة. تناولتُ بشكل خاص تجربة الكوتا المسيحية، وكيف أثّرت أنماط التحالفات السياسية والتدخلات الخارجية على قدرة هذا المكوّن على التعبير المستقل عن إرادته داخل البرلمان والمؤسسات الرسمية.

في كل دورة انتخابية عراقية، يعود المشهد نفسه كما لو أنه فصل جديد من رواية «الإخوة كارامازوف»، حيث تتجدد الأسئلة القديمة بصيغ جديدة: هل تمثل الكوتا المسيحية فعلاً صوتاً حقيقياً للمكوّن، أم أنها مجرد مرآة تعكس رغبات الآخرين؟

في الظاهر، تبدو المقاعد الخمسة المخصصة للمسيحيين في بغداد ونينوى وكركوك وأربيل ودهوك علامة احترام للتعددية العراقية ومحاولةً لترميم الفجوة بين مبدأ المواطنة وحقيقة التنوع الديني. لكنها، في الواقع، تحولت شيئاً فشيئاً إلى ساحة يتنازعها «الإخوة الكبار» كلٌّ منهم يسعى لتوجيه هذا الصوت الصغير بما يخدم مصالحه ويعزز نفوذه في المشهد السياسي الأوسع.

مرة أخرى، يشبه المشهد إلى حدٍّ بعيد صراع الإخوة كارامازوف أنفسهم:

فديمتري المندفع بعاطفته وغريزته، يشبه تلك القوى التي تتعامل مع الكوتا بوصفها غنيمة انتخابية، تُمنح لمن يعلن الولاء في لحظة التحالف. وإيفان العقلاني المتردد، هو صورة القوى التي تتحدث عن المساواة والتمثيل، لكنها في النهاية تترك المبدأ يتلاشى أمام براغماتية الصفقات. أما أليوشا، الأخ الروحاني الطيب، فيجسد الأصوات التي تنادي بصدقٍ لحماية الوجود المسيحي، لكنها تظل عاجزة عن مقاومة آلة المصالح الكبرى.

هكذا تحولت الكوتا من وسيلة لتمثيل الذات إلى أداة في لعبة الإخوة الثلاثة. فالقانون الذي أتاح لجميع العراقيين التصويت لمرشحي الكوتا، فتح الباب أمام القوى الكبيرة لتوجيه كتلها التصويتية نحو مرشحين «مسيحيين» مقرّبين منها، حتى بات بعض ممثلي المسيحيين يصلون إلى البرلمان بأصوات غير مسيحية. وبذلك، لم تعد الكوتا تعبيراً عن الإرادة المسيحية، بل انعكاساً لتوازنات أكبر منها. (ينطبق ذلك ايضاً على إمكانية التلاعب بمقاعد الأقليات الدينية الأخرى مثل الإيزيديين والصابئة المندائيين وفق الآلية ذاتها).

لقد كشفت التجربة أن المقعد المضمون لا يضمن التمثيل الحقيقي، وأن السؤال الجوهري ليس «كم لدينا من النواب المسيحيين؟» بل: من يمثل من؟ فهل يمثل هؤلاء أبناء طائفتهم أم مصالح القوى التي دفعت بهم إلى المقعد؟

إنها معضلة تشبه صراع الإخوة الثلاثة: الجميع يتحدث باسم الحق والحب والعقل، لكن الطفل (رمز البراءة والضمير) هو وحده من يدفع الثمن.

من هنا، ناقشت في الأشهر الماضية مع العديد من النخب المسيحية الكنسية (التي ترى ضرورة تدخل المرجعيات الكنسية في السياسة)

والسياسية (التي حرمت من التمثيل السياسي بسبب التلاعب بالكوتا) حول ضرورة الدعوة لاعتماد نظام تصويت خاص بالمسيحيين، أو سجل انتخابي مغلق يتيح لهم اختيار ممثليهم بحرية. لأن الكوتا، إن أرادت أن تكون صوتاً حقيقياً، عليها أن تتحرر من سلطة الإخوة الكبار، لتصبح الصوت الذي لم يُتح له الكلام بعد ذلك الصوت الهادئ الذي يذكّر الجميع بأن العدالة لا تُقاس بعدد المقاعد، بل بصدق من يجلس عليها.

بيت آل كارامازوف الصغير: انقسامات الكلدان والأشوريين والسريان

مأساة «الإخوة كارامازوف» لا تقف عند حدود البيت الكبير، بل تمتد إلى داخل البيت الصغير نفسه. فالمسيحيون، الذين كانوا ضحية صراعات الإخوة الكبار، وجدوا أنفسهم بدورهم يتنازعون على فتات الصوت الواحد. انقسمت نخبهم السياسية والكنسية كما انقسم الإخوة الثلاثة في الرواية:

منهم من يتصرّف بعاطفة ديمتري، يندفع في الولاء لهذا الطرف الشيعي أو ذاك الطرف الكردي بدافع الانفعال والاحتياج، ومنهم من يتخذ موقع إيفان، يناقش ويحلّل ويشكّ، لكنه يظل عاجزاً عن الفعل حين تحين اللحظة (أضع العديد من النخب الإشورية والكلدانية المعارضة في هذا التصنيف)، وهناك أيضاً من يشبه أليوشا، يحمل النية الطيبة والإيمان العميق، لكنه يجد نفسه محاصراً بين نزق العاطفة وجفاف العقل (أضع العديد من النخب الثقافية والمدنية المسيحية في هذا التصنيف).

ولعلّ الصراع المسيحي الداخلي هو أحد أخطر العوامل التي أضعفت هذا المكوّن، أكثر حتى من الضغوط الخارجية نفسها. فهو ليس مجرد خلافٍ بين أحزاب صغيرة أو تباينٍ في الرؤى، بل صراع معقّد تتداخل فيه المصالح الطائفية والإقليمية، وتغذّيه قوى من خارج البيت المسيحي تسعى إلى استخدامه كورقة في لعبةٍ أكبر.

وإذا أضفنا إلى ذلك الانقسامات الداخلية بين الكلدان والأشوريين والسريان، تزداد مأساة البيت الصغير تعقيداً. فكل طائفة تسعى لحماية نفوذها وصوتها داخل الكوتا والمشهد السياسي، وغالباً ما ينظر كل طرف إلى الآخر بعين الريبة، كما لو أنه يكرر صراع الإخوة الكبار على أرضية مصغّرة. بعضهم يتصرّف كديمتري، متحمّساً وحادّاً، يطالب بموقع مهيمن ويريد فرض رؤيته، البعض الآخر يشبه إيفان، يتردد ويحلّل دون أن يجرؤ على اتخاذ القرار الحاسم، وهناك من يشبه أليوشا، يسعى للسلام والوئام، لكنه يجد نفسه عاجزاً أمام شراسة النزاعات وأطماع النفوذ.

هكذا لم تعد الانقسامات مفروضة من الخارج فقط، بل تولّدت في الداخل أيضاً على مستويات متعددة، حتى غدا الصوت المسيحي مجزّأً ومشتّتاً كبيت آل كارامازوف، كلٌّ فيه يدّعي أنه الأصدق تمثيلاً للروح، فيما تضيع الحقيقة بين صراخ الإخوة وصمت الطفل.

خداع المجتمع الدولي: الإخوة الكبار خارج البيت

لم يقتصر صراع الإخوة كارامازوف على البيت العراقي وحده، فخارج الحدود، ثمة إخوةٌ أكبر، إقليميون ودوليون، يتناوبون على استخدام الورقة المسيحية في لعبة النفوذ والخطاب الإنساني. إذ كثيراً ما جرى توظيف المسيحيين كرمزٍ في الحديث الدولي عن حماية الأقليات، حتى بدت قضيتهم أقرب إلى ملف إنساني منها إلى مشروع سياسي وطني.

تتحدث العواصم الكبرى والمنظمات الدولية (وحتى الكرسي الرسولي في العديد من الحالات) عن «ضرورة الحفاظ على الوجود المسيحي في الشرق»، لكن هذه اللغة، رغم نبلها، تبقى أخلاقية أكثر منها فاعلة، لأنها لا تترجم إلى رؤية داخلية تُعيد إدماجهم في بنية الدولة والمجتمع.

وفي الوقت نفسه، يظهر إخوة آخرون في الإقليم، بعضهم يرفع شعار الحماية، وبعضهم يسعى إلى الاستثمار السياسي، فيتنافس الجميع على تقديم أنفسهم كـ «أليوشا» الحنون، فيما تتحكم المصالح في خلفية المشهد كـ «ديمتري» المندفع و «إيفان» المتردد بين المبدأ والمنفعة.

وهكذا وجد المسيحيون أنفسهم في مرمى إخوة كبار جدد، محليين وإقليميين ودوليين، يتبادلون الحديث عن مصيرهم، لكن قلّما يصغون إلى صوتهم. والنتيجة: ضعف المشروع السياسي الوطني المسيحي، في مقابل دعم خارجي لا يتحول إلى نفوذ داخلي. إنها مفارقة أخرى من مفارقات «البيت الكارامازوفي الكبير» الذي يبدو دائماً منشغلاً بالجدال عن العدالة، لكنه ينسى أن يسمع صوت الطفل الذي كان سبب الحكاية كلها.

نحو إصلاح الكوتا.. كي لا يبقى «المسيحيون» بلا صوت

إذا كانت الكوتا المسيحية قد تحوّلت في التجربة العراقية إلى ساحة يتنازعها «الإخوة الكبار من الشيعة والسنة والأكراد» -كلٌّ يسعى لتطويع صوتها ضمن مصلحته- فإن إصلاح هذا النظام هو الخطوة الأولى لاستعادة صوت الطفل الصغير في رواية الإخوة كارامازوف، ذاك الذي لم يُتح له الكلام بعد، لكنه كان ضمير القصة ومعناها الأعمق.

فلكي تستعيد الكوتا معناها الأصلي كأداةٍ لحماية التنوع وتمكين الأقليات، لا بد من إعادة النظر في آلية التصويت والترشيح. وقد انطلقتُ في نقاشاتي مع النخب المسيحية، الدينية منها والسياسية، من هذه القناعة تحديداً: أن المشكلة ليست في النصوص، بل في من يمسك بخيوطها.

فالنخب الدينية ترى أن غياب صوت المرجعيات الكنسية عن الشأن العام جعل الساحة مفتوحة لتجاذبات الآخرين، فيما تشكو النخب السياسية من حرمانها بسبب طبيعة تطبيق الكوتا الحالي، الذي وضع مفاتيحه في أيدي من هم خارج الطائفة نفسها.

لذلك، يبدأ الإصلاح الحقيقي من ثلاث خطوات أساسية:

1-تخصيص سجل انتخابي خاص بالمسيحيين، يتيح لهم اختيار ممثليهم بأنفسهم، بعيداً عن تأثير الكتل الكبرى التي تحاول، كما في حكاية الإخوة، أن تتحدث باسم الطفل دون أن تسمع صوته.

2-تعزيز استقلال الكوتا عبر هيئة إشرافية مستقلة تتابع نزاهة الترشيحات وتمنع استثمارها في التحالفات الانتخابية التقليدية، بحيث يصبح المقعد تعبيراً عن ضمير المكوّن، لا عن مصلحة أحد الإخوة الكبار.

3-وأخيراً، انسجاماً مع ما دعوتُ إليه في كتابي (المشاركة السياسية للأقليات في العراق، مؤسسة مسارات، 2017) بشأن ضرورة تحويل التمثيل الرمزي إلى مشاركة فعّالة، أقترح إعادة النظر في آلية عمل الكوتا المسيحية من خلال إسناد مقعد الكوتا بحقّ فيتو مشروط. ويُفعل هذا الفيتو حصرياً في القضايا التي تمسّ مباشرة حقوق المسيحيين الدينية أو الثقافية أو أراضيهم التاريخية أو هويتهم الجمعية.

غير أن هذا الحق لا يُمارس بصورة مطلقة أو معرقلة للنقاش الوطني العام، بل يُضبط بضوابط دقيقة تضمن عدم استخدامه من قبل القوى الكبرى أو الأحزاب المتنفذة كأداة لتعطيل المداولات البرلمانية أو لتصفية الحسابات السياسية. وبهذا، يتحول مقعد الكوتا من موقع رمزي إلى آلية مؤسسية لحماية الوجود المسيحي وضمان المساواة الفعلية في صنع القرار.

ختاما، إن حماية التعددية في العراق لا تتحقق بالخطابات وحدها، بل بآلياتٍ تضمن أن يكون صوت الأقلية صادراً من داخلها لا مفروضاً عليها من الخارج. فحين تتحرر الكوتا من صراع الإخوة الثلاثة، وتستعيد براءتها الأولى كمساحةٍ للإنصاف، يصبح البرلمان أكثر صدقاً في تمثيل فسيفساء مجتمعه، وأقرب إلى روح الدستور الذي أراد أن يكون لكل عراقي، مهما كان انتماؤه، مكاناً وصوتاً وكرامةً في الوطن.

د. سعد سلوم: أستاذ العلاقات الدولية في كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية، من مؤسسي مبادرة الحوار المسيحي الإسلامي 2010، المجلس العراقي لحوار الإديان 2013، مركز رصد ومواجهة خطابات الكراهية 2018، ومعهد دراسات التنوع الديني 2019، ومعهد صحافة التنوع في العراق 2020. ويترأس مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية.

له 22 مؤلفاً عن شؤون التنوع المختلفة، ودراسات منشورة باللغات الانكليزية والفرنسية والايطالية. حاز على جائزة ستيفانوس الدولية-أوسلو 2018، وجائزة ابن رشد للفكر الحر-برلين 2022، وجائزة مؤسسة ZÊD الالمانية للتضامن الانساني فرانكفورت-2023. وفي عام 2019 حاز على جائزة البطريركية الكلدانية، وجائزة كامل شياع لثقافة التنوير عن مجمل أعماله الفكرية.

نشر له مركز البيان مجموعة دراسات من أبرزها: الإبادة الجماعية مستمرة 2022، السياسة الخارجية العراقية ومجتمعات الدياسبورا 2024، أجراس الزوال: مذبحة كنيسة سيدة النجاة في ذكراها الرابعة عشرة 2024، من روما إلى أور: مسيرة البابا فرنسيس الإصلاحية وميراثه الروحي 2025.

لِدولةٍ فاعلةٍ ومجتمعٍ مُشارِك

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org